صور من الحياة :

جـــزاء . . .

للأستاذ كامل محمود حبيب

آه ، إن في الإنسان دوافع ترابية إن سيطرت عليه نزلت به عن معاني الإنسانية !

قال لي صاحبي : وانفلتُّ من لدن أخي بعد أن سخر من ضعفي وسلبني مالي ... انفلت من لدنه وفي يدي جنيهات ، وفي قلبي لوعة ، وفي عيني عبرة ، وأحسست بقلبي يحتدم غيظاً وكمداً ، وشعرت بفؤادي ينشق أسى وألماً .

ولبسني الشيطان ، وسيطر عليّ الأرق ، وتناهبتني الهموم ، فقضيت ليلتي أتقلب في آرائي وشجوني والشيطان إلى جانبي ما يبرح ينفث فيّ سموماً شيطانية ويسوّل لي أمراً ، وأنا ألقي السمع إلى كلماته ، أطمئن إلى حديثه حيناً ، وأفزع عنه حيناً ، وبين يديّ جنيهاتي أقلبها ذات الشمال وذات اليمين وفي قلبي قلق واضطراب ، وفي رأسي خواطر سود ما تنقشع ... ولكن أخي هو أخي ، ضمني وإياه تاريخ سنوات عجاف ، ولطالما استثمرت منه العطف والحنان والتضحية .

وقال لي الشيطان : لقد غالك أخوك وأنت في مرضك تهفو إلى شفقته وترنو إلى رحمته ، غالك لتصبح فقيراً ترى أبناءك يحسون لذع الفاقة ومرارة العوز وقسوة الحرمان على حين يرفل أبناؤه في السعة ويتقلبون في النعيم .

لا عجب ، فهو رجل ترابي النفس ، أرضي العاطفة ، نشر حواليك شباك الجشع — على حين غفلة منك — ليستلبك من مالك ، وأنت في سقامك لا تستطيع أن تذود عن نفسك بعض طمعه ولا أن تناقشه الرأي ، فاستسلمت — على الرغم منك — في فتور وضعف . لقد عبث بالأوراق في خسة ، ورتب الحساب على نسق أراده هو ليبلغ غاية يتلظى الشره من ثناياها منذ أن شطر الدار شطرين ، وأرهقك بالدين من عهد منه ، ثم صدمك بفكرة بيع الدكان ليرغمك على أن تنزل له عن حصتك بثمن بخس . تلك أمور سوّتها إرادة طينية تغلغلت في نفسه ليستولي على مالك في غير حق . فأنت عاجز الهمة ، خائر المروءة ، إن لم تدفع ما أصابك من ظلم وطغيان . ستراه — بعد أيام — يرفل — هو وصغاره — في الحرير والدمقس ويستمتع بأطايب الطعام ولذيذ المآكل ، على حين لا تجد أنت إلا صبابة من مال لا تغني من عرى ولا تسمن من جوع . فلا تقعد من أن تغمد هذا الخنجر في صدره ، أو تصوب فوهة ذاك المسدس إلى قلبه . تسلل إليه في سكون الليل ، تحت ستر الظلام ، ثم استل روحه من بين جنبيه وارتد إلى فراشك هادئ البال ، ساكن الجأش ، فتكون قد انتقمت لكرامتك ومالك . وإلا فأنت عاجز الهمة خائر المروءة .

وظل الشيطان يوقع لحن شيطانيته على أوتار أذني في دربة ولباقة ، حتى أوشكت أن ألقي إليه السَّلم فأتردى في الهاوية ، وظللت أنا أضطرب في معضلات لا أهتدي ولا يغمض لي جفن ، فما سكنت جائشة نفسي إلا حين سمعت صوت المؤذن ينادي في الفجر : « الله أكبر ، الله أكبر » ... فاستيقظت الروحانية في قلبي ، وقمت في تراخ وكسل أدس جنيهاتي في درج مكتبي ، ثم انطلقت صوب المسجد عسى أن أجد هناك راحة النفس وهدوء الضمير ، أو أن أنفض عني الخواطر الشيطانية وهي ما زالت تتدفق في قلبي منذ الغسق . وهناك — في المسجد — أحسست بالسكينة والأمن حين ألقيت من كاهلي متاعبي وشجوني . وكنت كلما سمعت « الله أكبر » شعرت بروح المسجد تغمر قلبي نوراً وهدوءاً ، وتملأ جوانحي ثقة وإيماناً ، وتنفث في روحي الحياة والنشاط . وللمسجد في قلب المؤمن معان سماوية تسمو به عن النوازع الأرضية الوضيعة ، وترتفع به عن شواغل المادة الحقيرة . وسكنت إلى المسجد فجلست في ناحية منه أستلهم وحيه السماوي وأجتلي نوره الفياض ، فما أفقت إلا حين ملأ نور الصبح صحن الجامع .

ورجعت إلى داري يهدني الجهد والإعياء مما قاسيت في ليلتي وأنا مؤرق الجفن ، مضطرب البال ، مشتت الذهن ، فبدا عليّ الشحوب والذبول . ورأت زوجي عذاب نفسي مسطوراً على جبيني فنظرت إليّ في ذهول وشفقة ، ثم انعقد لسانها فما استطاعت أن تحدثني بأمر ولا أن تشير برأي ، وخشيت أن تقول كلاماً ينكأ جرحي ويدمي قلبي ويركس إلى العلة التي برئت منها منذ أيام ، فأمسكت بالرغم منها .

وقضيت يومي أضطرب في أنحاء القرية لا أستقر ، أريد أن أفر من خواطري ، وأن أهرب من أخيلتي ، فلا أستطيع إلى ذلك سبيلا ، وظلت هي تلاحقني وتتشبث بي حتى رجعت إلى داري عند الأصيل . وألفيت زوجي تختلج اختلاج مكروب أرمضه الأسى ، وفي عينيها أثر البكاء والضنى .

وعزّ عليّ أن أحمّلها بعض وزري ، أو أن أشركها في هذا البلاء ، فأطفئ فيها جذوة الشباب وأخمد فيها نور الحياة . وعزّ عليّ أن تتساقط أسفاً وحسرة ، وأنا قد لمست فيها العطف والحنان في ساعة العسرة ، فجلست إلى جانبها أحدثها : « ما بك ؟ » قالت : « لا شيء ، إلا أن أراك تأسى على أمر تافه ضئيل » . قلت : « لقد غالني أخي فسلبني مالي » . قالت : « لا بأس عليك ، فهو أخوك الأكبر ، وهو منك بمنزلة الأب ، وله عليك ألف حق وحق » . قلت : « أفيذرني وحيداً عاجزاً يلتهمني الألم وتعصرني الفاقة » . قالت : « آه ، إن في السماء أموراً غُيّبتْ عنا لتكون بلاء للصابرين ! وما أقسى فقر النفس ! » . قلت : « هذه فلسفة مفنّدة » . قالت : « ولكنها فلسفة روحانية تذر النفس هادئة مطمئنة ، فكم أخذت من أخيك بالأمس ثمناً لحصتك في الدكان » . فسحبت جنيهاتي من درج المكتب في فتور ، ثم ألقيتها بين يديها في صمت . ونثرت هي الجنيهات بين يديها تعدها وأنا أرمقها في سكون ، ثم قالت : « الحمد لله ، هذا شيء كثير » . وعجبت أنا لقولها ، ولكن نفسي اطمأنت حين أحسست بكلماتها تزيح عني عبئاً ثقيلا يمضني ويضجرني ...

وفاضت روح الإيمان والعقيدة على المبلغ الضئيل فلأته خيراً وبركة ، وفاض نور المسجد على قلبي فغمره فاستحال اليأس القاتل إلى أمل واسع جيّاش ، وانقلب الفتور إلى نشاط يتوثب ، وأحسست بالصحة تسري في عروقي ، وانطوت الأيام فإذا جنيهاتي تصبح دكاناً يفهق بالبضائع من كل صنف ، ورفّت السعادة على داري فأفعمتها بالهدوء والطمأنينة ... ثم ... ثم نسيت ما كان من أخي الأكبر .

أما أخي فظل يدل عليّ بماله وصحته وأولاده حيناً من الزمان ، ثم ضربته العلة وركبه السقام فأنهكت قوته وذوى نشاطه . أفكان ذلك من أثر الندم الذي جاجيج بين جوانحه على أن غالني حقي وأنا مهدود القوة لا أستطيع أن أدفع أذى ولا أن أرد شراً ؟ أفكان من أثر أكل المال الحرام وهو يتسرب إلى جوفه لتلظى يتضرم ؟ أفكان من عدل السماء وهو يجازي الشر بالشر ويدفع السيئة بالسيئة ؟ من ذا يدري ؟ ولكنه انطلق يطب لداءين : داء نفسه وداء جسمه ... وثقلت عليه وطأة المرض فانحط في فراشه لا يبرحه ، وانصرف عن تجارته فأغلق دكانه ، وتحلل المال من بين يديه إلى الدواء والطبيب ، وبدا على وجه زوجه سمات الجزع والقلق — بادئ ذي بدء — ثم برمت به فهي لا تصغي إلى حديثه إلا في ملل ، ولا تجيب نداءه إلا في ضجر ، ولا تقوم على خدمته إلا في تثاقل .

واختلفت إليه أريد أن أخفف عنه لوعة المرض ، وأن أزيل عنه جفوة الوحدة ، فاستقبلتني زوجه — أول الأمر — في بشر وتلقتني في بشاشة وتحدثت إليّ في سرور ، ثم تراءى لي أنها تطمع في أن تصرفني عن أخي ، وأن تخدعني عن نفسي ، وأن تستلبني من قلبي ، فدفعتها في رفق ونصحتها في لين ، ولكنها كانت فتاة جبلة فيها المكر والمداهنة ، تتوسل إلى رغبات نفسها بأساليب شيطانية فيها الإصرار والعناد . وخشيت أن أغلظ لها القول فتنطلق إلى أخي توسوس له وتوحي إليه بأني أريد أن أعبث بكرامته ، أو أن أسطو على عرضه فتقصمه الصدمة ، وهي قوية عنيفة ، وهو ما يزال يعاني عنت المرض ولأواء العلة .

لشدّ ما آذاني أن أراك — يا أخي — تفقد مالك وصحتك وزوجك في وقت معاً ! ولشدّ ما حزّ في نفسي أن أرى زوجك تحاول أن تنتزف عن كرامتي وشرفي ورجولتي لأكون حيواناً يرتدع في حيوانيته في بيتك أنت يا أخي !

بالرغم مني — يا أخي — أن أزوي عنك فلا أزورك إلا بين الحين والحين ، وبالرغم مني أن أصانع زوجك اللعوب لأحفظ ودك ... آه ، لو أن لك أذناً تسمع حديثي وتطمئن إلى قولي ! ولكني أوقن بأنك لا تسكن إلا إلى حديث زوجك ، ولا تستعذب إلا كلامها ، ولا تستسيغ إلا خداعها !

ومضت الأيام ، فإذا أخي يخرج إلى الناس يتكفأ في مشيته من الضعف والهزال ، وقد ضربه الإفلاس وركبه الدّين ، لا يجد من يحنو عليه غيري أنا .. أنا أخوه الذي اغتال مالي وسلبني حقي ليشبع رغبات نفسه ورغبات زوجه .

فيا أخي ، إن في الإنسان دوافع ترابية إن سيطرت عليه سفلت به عن معاني الإنسانية !

كامل محمود حبيب